كي لا تصبحوا على ما فعلتم نادمين !

لا ريب أنه من المبكر جداً الحكم على سيرورة الأمور في العراق بعد نحو عامين على بدء الحرب و سقوط النظام ، فالتركة كبيرة، والتناقضات الاجتماعية والسياسية التي خلفها ما يقارب الخمسة والثلاثين عاماً من حكم البعث، غير قابلة لأن تختفي بين عشية وضحاها، أو بمجرد سقوط صدام حسين.

روسيا الاتحادية مثلاً ما تزال تحاول حل المشكلات والتناقضات التي خلفها سقوط نظام السبعين عاماً من الشيوعية الشمولية، سواء كنا نتحدث عن مشكلة القوميات، أو مشاكل الاقتصاد في طور التحول إلى نظام السوق المفتوح، أو كنا نتحدث عن التحول من ثقافة سياسية تمجد الدولة ولا تعترف بغير الدولة، إلى ثقافة سياسية تمجد الفرد وتعترف بالإنسان. بعد أكثر من عقد من السنين، ما زالت روسيا تتخبط، فماذا يمكن القول حين الحديث عن العراق بعد سنة من انهيار الشمولية؟

كان الهدف الأميركي من عملية الغزو، ومن ثم الاحتلال، هو إعادة ترتيب المنطقة بما يؤمن سلامها وأمنها بعد أحداث ١١ سبتمبر، وذلك بإقامة نظام تعددي ديموقراطي يكون نموذجاً يحتذى في المنطقة العربية، أو منطقة الشرق الأوسط بشكل عام، في محاولة لنقل ما حدث في الكتلة الشرقية الى المنطقة العربية. فقد كان التصور الأميركي هو أن سقوط بغداد ونظامها في المنطقة العربية سيكون شيئاً مماثلاً لسقوط حائط برلين وانهيار الكتلة الشرقية بالتالي، أو هكذا كان يتصور الصقور من مستشاري الرئيس بوش. فإذا كان الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية يمثلان «إمبراطورية الشر» ذات يوم، فإن المنطقة العربية تحديداً تشكل اليوم ما يمكن أن يُسمى «منطقة الشر»، بالنسبة للتصور الأميركي، وخاصة بعد سبتمبر.

ما حدث هو أن التصور الأميركي بتغيير سريع في المنطقة العربية، على غرار ما حدث في الكتلة الشرقية، لم يحدث، أو لنقل أن حسابات الحقل لم تتطابق مع حسابات البيدر في هذه الحالة. نعم إن دول الكتلة الشرقية السابقة ما زالت تعاني من عملية التحول والتغيير، ولكن سقوط حائط برلين قد أدى إلى سقوط كل أنظمة الكتلة الشرقية، وذلك كما تتهاوى قطع الدومينو عندما تسقط أول قطعة منها، وهذا ما لم يحدث في المنطقة العربية بعد سقوط بغداد وفق تصور معين، وذلك لاختلاف جوهري بين المنطقة العربية وأوروبا الشرقية. فالشمولية، والشمولية فقط، كانت هي المشكلة الرئيسية التي كانت تعاني منها مجتمعات أوروبا الشرقية، ولذلك ما أن بدأت الشمولية تتهاوى في الدولة الراعية، أي الاتحاد السوفياتي، حتى بدأت تتهاوى بقية الشموليات التابعة، وانتهى كل شيء بسقوط الجدار. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الولايات المتحدة، الدولة الراعية للتغيير، لم تكن ذات سمعة سيئة عند تلك الشعوب، بالرغم من البروباغاندا الشيوعية المعادية للإمبريالية، بل على العكس من ذلك، كان «الحلم الأميركي» واحداً من الأمور التي كانت تداعب خيال إنسان تلك المجتمعات. بإيجاز العبارة، فإنه لم يكن هنالك اختلاف ثقافي جذري بين الكتلتين الشرقية والغربية، رغم الاختلاف الايديولوجي، فالكل في النهاية ينتمون إلى ثقافة ذات جذر واحد، مهما كان تفرعها إلى شيوعية أو رأسمالية، شمولية أو تعددية، فالاختلاف سياسي وأيديولوجي هنا وليس ثقافياً.

أما في المنطقة العربية، فإن التململ من الشمولية ليس هو لب المشكلة في مجتمعاتها، بل أن أنواعاً من الشموليات، الدينية والقومية، تتمتع بشعبية كبيرة في تلك المجتمعات، ولذلك فإن سقوط شمولية عربية معينة، وبفعل خارجي، لا يعني بالضرورة سقوط بقية الشموليات العربية، خاصة إنه ليست هناك دولة راعية للشمولية، كما في الحالة الشرقية، فكل شمولية عربية مستقلة بذاتها ولا تعتمد على شمولية أخرى لرعايتها، وقائمة على ثقافة سياسية وتاريخية معينة لم تعرف غير الشمولية طريقاً. لب المشكلة في المنطقة العربية هو القضية الفلسطينية تحديداً، وأي مشروع لا يؤدي إلى حل هذه المشكلة يُنظر إليه بريبة من قبل الشعوب العربية. التاريخ الأميركي مع هذه القضية ليس بتلك الإيجابية، لذلك فإن المصداقية الأميركية مجروحة في هذا الجانب، وهو ما يؤدي إلى تهافت مصداقيتها في جوانب أخرى في العين العربية. أن تقوم الولايات المتحدة بغزو العراق والإطاحة بالنظام الشمولي هناك، ومحاولة إقامة نظام ديموقراطي نموذجي في المنطقة العربية، ولا علاقة لنا بالنية أو الدوافع الأميركية الحقيقية في هذا المجال، مسألة لا تنظر إليها العين العربية بارتياح، بغض النظر عن الدوافع الأميركية، إنطلاقاً من الموقف الأميركي من القضية الفلسطينية أولاً، يضاف إلى ذلك موقف ايديولوجي، قومي أو ديني، معاد للدور الغربي «المشبوه» في المنطقة بشكل عام. لذلك، فإنه بعد عام على الحرب وسقوط النظام في بغداد، فإن الولايات المتحدة لم تستطع أن تحقق من هذه العملية ما كانت تصبو إليه أو تخطط له عربياً، من سقوط للشموليات العربية، أو بداية سقوطها وتضعضعها على أقل تقدير. فعلى العكس من أوروبا الشرقية، فإن المصداقية الأميركية في المنطقة مجروحة، كي لا نقول شبه معدومة، ولذلك فإنها غير قادرة على إحداث تغيير حقيقي في المنطقة، ما لم تستطع بناء مصداقية حقيقية في العين العربية، وانطلاقاً من القضية الفلسطينية تحديداً.

بل على العكس من ذلك، فإنه يمكن القول إنه بعد عامين على الحرب والسقوط ، فإن كره أميركا قد ازداد في المنطقة العربية، على عكس توقعات مستشاري الرئيس بوش. فقلة قليلة من العرب ترى أن ما قامت به الولايات المتحدة في العراق هو تحرير، بقدر ما ترى الكثرة أنه احتلال يهدف إلى تصفية القضية الفلسطينية، وفرض ثقافة معادية للثقافة العربية الإسلامية، وإثارة النعرات العرقية والطائفية، وتقسيم العراق ودول عربية أخرى ربما. أن تكون هذه هي أهداف الولايات المتحدة الحقيقية في المنطقة، أو أنها مجرد اتهامات لا أساس لها من الصحة، مسألة غير مهمة، بقدر ما أن المهم هو أنها تشكل تصور القطاع الأعرض من العرب للسلوك الأميركي، أياً كان هذا السلوك، ومن ثم دافع السلوك السياسي العربي بشكل عام. وعلى ذلك، فإن كل ما تفعله أميركا لتحسين صورتها العربية، ومهما كان نوع هذا الفعل، لن يجدي فتيلاً في تغيير الذهنية العربية العامة تجاهها، ما لم تسهم بدور فعال في حل القضية الفلسطينية، وفك ارتباطها الاستراتيجي مع إسرائيل. فالقضية الفلسطينية في الوعي العربي العام، ليست قضية سياسية وحسب، كما قد يتصور المخطط الأميركي، بقدر ما أنها قضية دينية وقومية في مقامها الأول، ومن خلالها تبرز كل حساسية عربية تجاه الآخر.

د. تركي الحمد *

ولكن، كما يبدو، فإن إدارة الرئيس بوش لا تأخذ هذه المسألة بعين الاعتبار كثيراً حين التعامل مع الشأن الشرق أوسطي، وهذا يبدو واضحاً من خلال مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي لم يطرح شيئاً بشأن القضية الفلسطينية، ومن خلال ترك القضية بكاملها لإسرائيل كي تحلها بمعرفتها ووفق وسائلها، وهذه مسألة في غاية الخطورة في ظل حكومة إسرائيلية كالتي يقودها شارون. تريد الولايات المتحدة تحولاً جذرياً في المنطقة العربية وفي كل المجالات، ولكنها غير قادرة على إحداث هذا التحول، عربياً وعراقياً، لأنها ببساطة غير قادرة على القراءة السليمة، وأول حرف في هذه القراءة هو المسألة الفلسطينية. فعدم حل القضية الفلسطينية سيبقى هو العائق الأهم أمام تغيير الحياة العربية، وبدون حلها سيبقى كل جهد آخر نوعاً من العبث.. .

في عام ١٩٥٨ قامت «ثورة» في العراق، أسقطت النظام الملكي وأعلنت الجمهورية. وأعلن القائمون بتلك «الثورة»، أن أهدافهم تتلخص في التحرر الوطني من الاستعمار، والقضاء على التخلف والاستبداد. من بعد هذه «الثورة»، جاءت سلسلة من «الثورات» والثورات المضادة، كلها لا تخرج في أهدافها عما كان معلناً في الثورة الأولى: التخلص من ثالوث الاستبداد والتخلف والاستعمار بمختلف أشكاله، الخفي منها والظاهر، المباشر وغير المباشر، الجديد والقديم. وتعاقب على حكم العراق الشيوعيون والقوميون والبعثيون، وكان كل طرف يحمل مشروعه الخاص في التخلص من الثالوث المدنس. وكانت الخطوة الأولى دائماً في سبيل ذلك، التخلص أولا من الخونة وأعداء الثورة، الذين يعيقون الانطلاقة المجيدة، والخونة دائماً هم كل الأطراف الأخرى التي لا تؤمن بمشروع القافز الجديد إلى السلطة. نحر الشيوعيون القوميين والبعثيين أيام الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم، فلم يلبث البعثيون أن سحلوا الشيوعيين في الشوارع، وقتلوهم في البيوت، حين قفزوا إلى السلطة عام ١٩٦٣، ثم جاء الناصريون فسجنوا وقتلوا البعثيين والشيوعيين معاً، حتى كان عام ١٩٦٨، عندما جاء البعثيون إلى السلطة، فأخرسوا الجميع، وقتلوا الجميع، وانتهت سلسلة «الثورات» العراقية بحكم «القائد الضرورة» ، الذي حول العراق إلى معتقل كبير، لا فضل فيه لعراقي على عراقي إلا بالخنوع المطلق، وتقديس اسم القائد الضرورة وهدية القدر، مبعوث العناية الإلهية صدام حسين.

أما الجماهير، فقد كانت دائماً تبحث عن خلاصها في القادم الجديد، لأنها لم تتعود أو تعود على أن يكون خلاصها بيدها، بل يجب أن يكون الخلاص على يد مخلص فرد يأتي به القدر، وقتما يشاء القدر، وكيفما شاء القدر. يتكشف القادم الجديد، الواعد بالسمن والعسل، فإذا به أسوأ ممن كان قبله. غنوا كثيراً، وابتهجوا كثيراً بالتخلص من نوري السعيد والأمير عبد الإله، فلم يلبثوا حتى تبينوا أن نوري وعبد الإله جنة بالنسبة لعبد الكريم. وكما صفقوا لعبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨، صفقوا لقتله عام ١٩٦٣، حتى جاء صدام حسين فجب ما قبله، وأصبح تاريخاً لوحده، أو نسياً وحده، ولكن نسيج لا كلل نسيج. سقط صدام حسين عام ٢٠٠٣ على يد قوات أجنبية، وما كان ليسقط لولا ذلك، فانفتحت أبواب الجحيم في العراق، وما كان مكبوتاً، أو مضبوطاً بالنار والحديد، خرج من قمقمه ليأكل الأخضر واليابس. كل ما كان يتفاعل خفية في أحشاء المجتمع العراقي منذ «الثورة» الأولى، وحتى السقوط الأخير، انفجر مثل دمل أهمل علاجه حتى تورم وانتفخ، فلما نُكئ بطرف اظفر أخذ ينثر صديده في كل مكان، ويبقى الجرح مفتوحاً وملتهباً. نصف قرن تقريباً من ثورة الرابع عشر من تموز وحتى سقوط التاسع من نيسان، تغيرت خلاله الوجوه والزعامات والمشروعات، فماذا فعل كل أولئك من أجل التخلص من ثالوث الاستعمار والاستبداد والتخلف؟

تبددت الثروات، وضاعت الحريات، وانتفت كرامة الإنسان، ولم يبق في النهاية إلا الفقر والجوع والمرض، وفوق ذلك كله الاستبداد الذي جاء بالاحتلال في النهاية، وأصبحنا في نقطة ما قبل الصفر، بعد أن أصبح الصفر أمنية. نصف قرن من المعارك ومشروعات مجد الزعيم، التي أرادت كل شيء فخسرت في النهاية كل شيء. التخلف لا يزال ضارباً أطنابه، والمحتل عاد من جديد، والاستبداد يطل برأسه من جديد في العراق، إذا ما استمر الحال على هذا الحال. الاستبداد وأحلام نبوخذ نصر قادت إلى مزيد من التخلف، وجاءت بالمحتل من جديد، والعراقيون اليوم أمام مفترق طرق حقيقي في تاريخهم، فإما أن يكونوا أو لا يكونوا، ولا وسط بين الخيارين. المسألة اليوم في العراق ليست مسألة وجود محتل من عدمه، بل مسألة وجود كيان من عدمه. «المقاومة»، أو ما يحب البعض أن يسميها مقاومة، تريد خروجاً سريعاً لقوات المحتل الأميركي من العراق، ولكن السؤال هو ما الذي سيحدث بعد ذلك، وهل هو في صالح الكيان العراقي؟ هذا هو السؤال، فالاحتلال بغيض، لا شك في ذلك، ولكن هناك ما هو بغيض وهناك ما هو أبغض، والأبغض هو ما يمكن أن يكون في ما لو تم خروج المحتل تواً وللساعة.

فخروج المحتل في مثل هذه الظروف لن تنتج عنه إلا حالة من حالتين: حرب أهلية لا تبقي ولا تذر، لن يخرج منها العراق إلا قاعاً صفصفاً ينعق فيه البوم والغربان كما يقال، أو أن يقفز أحد المنتظرين إلى السلطة، في «ثورة» خلاص وتحرر جديدة تصفق لها الجماهير، وفي كلتا الحالتين فإن الكيان العراقي هو الخاسر في النهاية. الاستبداد هو النتيجة في الخاتمة، سواء قفز إلى السلطة أحد قناصي الفرص، أو كانت حرباً أهلية يستبد بالأمر في نهايتها مخلص منتظر، أو تستأثر فئة منصورة بالحكم دون الآخرين، وكلتا الحالتين استبداد لن يكون حاله أفضل من حال سابقه من استبداد من ذات الطبيعة، فقد تتعدد الوجوه والأقنعة، ولكن الاستبداد واحد. فالمطالبون اليوم بخروج فوري للقوات الأميركية من العراق، هم في جلهم إما طائفيون (سنة وشيعة على السواء)، أو من الخاسرين بسقوط النظام السابق، وكل يرفع راية طرد المحتل كي يعود الاستبداد والاستئثار بالأمر من جديد، بوجه ديني أو بوجه دنيوي، وكلا الأمرين واحد. الاسم هو المقاومة، والجوهر هو القفز إلى السلطة والاستئثار بالأمر، وفي النهاية فإن احتلالا ظاهرا ومكشوفا خير من استعباد مستتر بهذه العباءة أو تلك، أو استبداد متخف خلف هذا القناع أو ذاك، والخاسر الأكبر في النهاية هو الجماهير التي تأسرها الشعارات، وتستولي عليها العاطفة، فتصفق في النهاية لجلاديها، ثم لا يلبث الندم أن يستولي عليها، ولكن بعد أن يكون الخراب قد عاث فساداً في البصرة.

مشكلة جماهيرنا أنها ضللت لزمن طويل، فغابت عنها معالم الطريق، ولم تعد قادرة على أن ترى بالبصر أو بالبصيرة، بل انها قمعت لأزمان طويلة حتى أنها نسيت كيف يمكن أن يكون السلوك المستقل، من دون شعار من هذا، أو دعوة خلاص من ذاك، مثل طفل لم يُعلم كيف يكون رجلاً، في ظل أب لا يعرف إلا ذاته. لقد دخل الأمريكيون ألمانيا واليابان وغيرهما محتلين ومغيرين أشياء كثيرة في تلك البلدان، ولا يزالون موجودين حتى هذه اللحظة بهذا الشكل أو ذاك، فقاومتهم الشعوب هناك، ولكن بشكل أكثر قوة وفاعلية مما تفعله مقاومتنا السابقة واللاحقة في العراق وغير العراق. صرف اليابانيون والألمان جهدهم إلى المقاومة بالبناء، وهزيمة العدو بسلاحه: سلاح التعمير لا سلاح التدمير، وانتصروا في ذاك التحدي. لقد استوعبوا درس التاريخ، وعرفت تلك الشعوب أن النصر لا يأتي من فوهة بندقية بقدر ما أنه يأتي من حقل قمح يشبع جوعاً، أو مستشفى يجد فيه المريض طبيباً، أو مدرسة تمنح الطفل علماً. قد تنجح «المقاومة» العراقية في إجبار القوات المحتلة على الخروج من العراق في مجاد هذه الظروف، وسوف يصفق البعض لهذا النصر العظيم الذي يضاف إلى أمجاد أمة العرب، ولكن ماذا بعد؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن يكون نصب الأعين. فإن تفوز في معركة مثلاً، لا يعني أن تكسب الحرب. لقد انتصر الفيتناميون على الولايات المتحدة عسكرياً، وأخرجوهم مذلين مهانين من سايغون (هوشي منه)، ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟ ما زالت فيتنام تتخبط في مشاكلها، وأصبحت الولايات المتحدة القوة الأوحد في عالم اليوم، فمن الذي انتصر في الحرب في النهاية، ولماذا انتصر؟

ليست هذه دعوة للاحتلال، فكل احتلال بغيض وإن وعد بالجنة، ولكنها دعوة للعودة إلى العقل في زمن عربي غاب فيه العقل، وفي زمن عالمي لا ينفع فيه إلا العقل. من المستفيد من استمرار حالة العنف والفوضى في العراق، إلا أولئك الذين في قلوبهم غايات أشك في أنها تهتم بالعراق كثيراً. ومن المستفيد من حرق ثروات العراق، إلا أولئك الذين يريدون أن يروا فشل التجربة الجديدة في العراق، في الداخل والخارج على السواء، والعراق وشعبه آخر همهم. فشيء من العقل يا أهل العراق، ولا تكونوا عوناً لهؤلاء على أنفسكم، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين

* مفكر وأكاديمي سعودي

> كان الهدف الأميركي من عملية الغزو، ومن ثم الاحتلال، هو إعادة ترتيب المنطقة بما يؤمن سلامها وأمنها بعد أحداث ١١ سبتمبر، وذلك بإقامة نظام تعددي ديموقراطي يكون نموذجاً يحتذى به في المنطقة العربية، أو منطقة الشرق الأوسط بشكل عام، في محاولة لنقل ما حدث في الكتلة الشرقية الى المنطقة العربية. فقد كان التصور الأميركي هو أن سقوط بغداد ونظامها في المنطقة العربية سيكون شيئاً مماثلاً لسقوط حائط برلين وانهيار الكتلة الشرقية.. لكن التصور الأميركي بتغيير سريع في المنطقة العربية، على غرار ما حدث في الكتلة الشرقية، لم يحدث، أو لنقل أن حسابات الحقل لم تتطابق مع حسابات البيدر .

لماذا نخاف هكذا؟

د. إلهام مانع *

إذن، كيف وصلنا إلى هذه المرحلة؟ مرحلة "المحظور في التفكير"، و "دوائر التفكير المغلقة".

أعود بكم إلى البداية!

ما الذي يجعل الكلمة لدينا، بين كل أمم المعمورة، مخيفة إلى هذا الحد؟

الكلمة والسطر والكتاب لا تخيف الأنظمة العربية الحاكمة فقط، فهذا أمر نراه في الكثير من الأنظمة القمعية في أقطاب المعمورة، ونحن على رأسها. بل نراها ترعب الفرد أيضاً ثم المجتمع لدينا، ومعاً، أي الفرد والمجتمع، يتحولان إلى أداة لقمع الفكر عندما لا يتماشى مع التيار العام.

أعود بكم إلى البداية!

ما الذي يجعل من الرأي المخالف لدينا كفراً؟

لا نقبل به، لا نستسيغه، لا نبتلعه، ونسعى سعياً إلى قطع لسان من يخرج به علينا!

نقطعه من عرقوبه!

ثم ما الذي يجعل من "الكفر" لدينا أمراً لا يمكن حتى التفكير به، فما بالك بالنطق به جهراً أمام الرأي العام؟

لم لا نعتبره رأياً فحسب؟ رأياً لا يمسنا. رأياً لا يقض مضاجعنا. رأياً يمكننا أن نرفضه، وأن نرد عليه، لكننا لا نقتل من يخرج به علينا.

ما الذي يخيفنا إلى هذا الحد؟

نخاف مذعورين، كالفئران.

لذلك نجد حكوماتنا في كل معرض كتاب عربي، تطالب دور النشر بقائمة بالكتب المنشورة، حتى تلحقها هي سريعاً بقائمة بالكتب الممنوعة.

مسكين أيها الكتاب.

ونرفض، كأفراد، الرأي لآخر، نرفضه بصورة قاطعة، وإلى المدى الذي دفع ببعض الطلاب في جامعة عربية برمي أستاذهم من نافذة القاعة عندما تجرأ المسكين ونطق بكلمة "الطبيعة" عند حديثه عن الخلق.

مسكين أنت أيضاً أيها الرأي.

أعود بكم إلى البداية!

فهنا يكمن موطن الاختلاف بيننا وبين الأمم الأخرى.

القمع الفكري لدينا لا تقتصر أدواته على جهاز الدولة الأمني، وأنبابه الرقابية، وخناجره القانونية، وهي كما تعلمون لا حصر لها لدينا،

بل يتجاوزه إلى شفرات المجتمع نفسه القاطعة، المجتمع بأفراده، الذين لا يكلون عن التربص لكل شخص يفكر بصورة حرة، بشكل آخر، بطريقة مغايرة، برؤية منافرة، التربص له أو لها، ثم حصد رأسيهما.

أهي الكلمة؟

أهو الرأي؟

هل هما المخيفان؟

أم أن المسألة في الواقع تتصل بأننا عندما ننظر إلى مرآة تلك الكلمات والآراء المناقضة، نرى في الوقت ذاته أنفسنا؟

نراها كما هي.

وعندما نراها لا تعجبنا..نكرهها، ونكره ضعفها، وتدنيها، نكره تدليها في أسفل القاع، متذللة بين الأمم.. نكرهها ونكره من يُدني تلك المرآة أمام أعيننا.

ولذلك، بدلا من أن نتحول إلى أنفسنا، نبحث عن العيب في أنفسنا، ونداوي العيب بأيدينا، نلوي أصابعنا، ونحولها إلى ذلك اللعين، ذلك الملعون، ذلك الذي قصد عمداً أن يوقظنا من سباتنا العميق.

رأي وجيه؟ ..لكنه لا يقنعني.. إذ أني أتساءل هل يكفي فعلاً هذا التفسير؟ تفسير مرآة "الرأي الآخر"؟

فهو قد يكون قادراً على أن يوضح ردود أفعالنا الآنية، وأن يفسر قوة تصرفاتنا الهوجاء في لحظتها، لكنه لم يصل إلى العمق بعد، كما لم يمس أصل البلاء.

ومادام التفسير السابق ليس عميقاً بما فيه الكفاية، هل يمكنني القول إن ثقافتنا "العربية" لا تسمح بالاختلاف؟ وأن الداء لذلك داء ثقافي؟ وأن البداية كانت من هنا؟

هل يمكن القول إننا شعوب دأبت على الطاعة؟ اعتادت عليها، وشربته حليباً من ثدي أمها.. وأن بذور القمع رغم جذورها التاريخية، تبدأ في بيوتنا، ممثلة في الأب، سي السيد كما صوره في جبروته الأديب نجيب محفوظ، ذاك الذي لا يقبل رأياً مخالفاً لرأيه، ذلك الإله، جبار ومتسلط، وحنون يا للغرابة، وأن الكف وهي تنهال على وجه الطفل تظل محفورة في وجدانه، تعينه على تذكر وجوب الولاء والطاعة حتى وهو يكره من يحني له رأسه، وتوفر له زخماً كافياً لرفضه هو الآخر لمن يخالفه الفكر.

أقول هذا وأنا أدرك في الوقت ذاته أن في مجتمعاتنا العربية المتنوعة أنماطاً أسرية مختلفة، فتلك السائدة في السعودية على سبيل المثال تختلف عن نظيرتها في مصر، أو عن تلك القائمة في المغرب أو سوريا. تماماً كما أن تلك السائدة ضمن الوسط المجتمعي ذاته، مصرية كانت أو سعودية، تتعدد بتعدد مشاربها وخلفياتها الثقافية والاقتصادية.

لكن هناك خطاً أبيض يصل بينها جميعاً رغم ذلك، يربطها معاً بالنبع، أصل البلاء وبدايته.

أو هل يمكن التذكير بأن الشعر العربي، أساس الثقافة العربية، يقوم جزء كبير من كيانه على "المدح والثناء"، مدح "الخليفة" أو "ولي الأمر"، مدح "الذات" أو "القبيلة"، ورغم جمال المدح والثناء، وحسن وقعه على النفوس، طراوته وحلاوته، فإنه لا يصل، ولن يصل بنا إلى الحقيقة أبداً.

بل يتوهنا عنها عامداً ومترصداً.

وأن الثقافة التي تعتمد كثيراً على المدح، لا تحتمل بالتأكيد الكثير من النقد.

بل تنفر منه، ومن الناطق به.

ولأننا لم نعتد على النقد، بل غرقنا في بحور المدح، أصبح من الصعب علينا أن نعتاد على التفكير بصورة "نقدية" "عقلانية".

كان الأمر صعباً منذ بدايته.

هي الثقافة العربية إذن؟ ..نعم، لكن إلى حد ما.. ذلك لأن ثقافة متسلطة في جذورها يمكن تشذيبها، ثم تهذيبها، ثم تطويعها بنظام تعليمي نُظم خصيصاً لمواجهة جبروتها. وألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية مثال على ذلك فسقوط النظام النازي ومبادئه العنصرية الشمولية لم يكن يعني القضاء عليه في نفوس الجيل الذي حارب إلى جانبه، ولذلك كان لا بد من وضع نظام تعليمي يتوجه أساساً إلى الجيل الجديد، يغرس مفهوم القبول بالآخر في نفوس الأطفال الطرية.

وأظن أن هذه المهمة قد تكللت إلى حد كبير بالنجاح.. نعم. أصل البلاء ومصدر الخوف لدينا له جذوره "الثقافية"، لكن الاكتفاء بهذا الجانب لا يقص علينا فصول الحكاية كلها.

فكما أن للحقيقة وجوه متعددة، فإن جذور الداء لدينا لها أسباب متنوعة، وكما أن لثقافتنا "العربية" دورها الأساسي الذي لا يمكن إنكاره، فإن "تسييس الدين" يتحمل هو الآخر قسطاً كبيراً من المسؤولية. قسطاً لا يغتفر.

* كاتبة يمنية

وسائل أوروبا الثلاث للمضي في مكافحة الإرهاب

خافيير سولانا *

ذكرتنا تفجيرات لندن ومدريد الارهابية بخطر الارهاب في اوروبا. اذن، كيف يمكننا الرد كمواطنين وكمسؤولين في دوائر تخطيط وصنع السياسات؟ هذه هي القضية التي يعمل المجلس الاوروبي على النظر فيها حاليا. لكنني ارى ثلاثة انواع من الردود المحتملة.

أولا: يجب علينا ان نجعل اجراءات مكافحة الارهاب اكثر فعالية. فالحكومات قد حسنت من اجراءات التنسيق في هذا المجال منذ هجمات ١١ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠١ وذلك من خلال إطلاق مبادرات ايجابية، وبفضل تعزيز التعاون بين اوروبا والولايات المتحدة، بالاضافة الى العمل الايجابي في مجال الشرطة والاستخبارات والمعلومات. واعتقد انه من الضروري الاعتماد على ما تم انجازه في هذه المجالات، فأوروبا لا تفتقر الى الارادة او الامكانيات، سواء كان ذلك في المجال القانوني أو المالي أو الاستخباراتي أو في الجانب المتعلق بعمل الشرطة. لذا، فإن التركيز الآن يجب ان لا ينصب على خلق امكانيات جديدة وإنما يوجه الى الاستخدام الافضل للامكانيات الموجودة اصلا. كما ان تحسين مستوى الانسجام والتنسيق يجب ان لا يصبح ممارسة بيروقراطية، وهذا هو السبب في تركيز المجلس الاوروبي على الخروج بنتائج عملية.

والى ذلك أصبح تحسين مستوى تبادل المعلومات من ضمن الاولويات. اذ يجب تبادل المزيد من المعلومات وبصورة اكثر سرعة وفعالية ومن جانبي كنت قد اقترحت قبل احداث مدريد اننا يجب ان نعزز من القدرات المتوفرة في المجلس فيما يتعلق بتحليل المعلومات الاستخباراتية في مجال الارهاب، كما رحبت باتفاق الدول الاعضاء في هذا الجانب. ولا اعتقد اننا في حاجة الى «سي آي إيه» اوروبية، إلا أنني سأطلع اجتماع المجلس الاوروبي المقبل في يونيو (حزيران) على الجوانب المتعلقة بتبادل المعلومات الاستخبارية ذات الصلة بالعمليات. واذا كان لا بد من السير في هذا الطريق، يجب ان نثبت ان ذلك سيؤدي الى تحسين التعاون الواسع مع ضمان السرعة والجانب الامني.

يضاف الى ذلك اننا يجب ان نطبق بصورة كاملة ودون أي تأخير الاجراءات القانونية، مثل مذكرة الاعتقال الاوروبية، ذلك لأن هذه ادوات حيوية لمكافحة الارهاب. كما يجب علينا ايضا تسريع خطوات تعزيز تأمين الحدود والسيطرة عليها. وبالاضافة لذلك يجب ايضا ان ننظر مجددا الى الاجراءات الهادفة الى محاربة تمويل الارهاب. ومن اجل تنسيق وانسجام الخطوات التي يجب علينا اتخاذها قررت تعيين منسق لجهود مكافحة الارهاب، اذ سيتولى جيغر دب فريز مهام العمل الذي يجري حاليا داخل الاتحاد الاوروبي في هذا المجال.

اما خارج نطاق القارة الاوروبية، فإننا في حاجة الى النظر مرة اخرى الى العمل مع الدول الاخرى، ويجب هنا ان نساعد شركاءنا في تعزيز قدراتهم على مكافحة الارهاب متى ما كانت هناك حاجة الى المساعدة. اما اذا لم تكن هناك نية من الجانب الآخر، فإن ذلك سيثير تساؤلات حول اساس هذه الشراكة.

ثانياً: نريد أن نبقى على اصرارنا بتفهم ومعالجة العناصر الكامنة وراء الارهاب. ليس ثمة سبب يبرر الارهاب، بيد أنه لا مبرر لتجاهل أسباب الارهاب. ومن الواضح أن هناك مجموعات جانبية متزمتة خارج نطاق الخطاب السياسي. غير أن هذه المجموعات تستمد بعض زخمها من مستنقع الاستياء والشكوى. وحيث تكون هذه الشكوى مشروعة فإن من الواجب معالجتها ليس فقط لان العدالة تقتضي ذلك بل ايضاً لان هذا جزء اساسي من عملية «تجفيف المستنقع».

لن يستطيع الارهاب أن يؤدي الى تقدم على صعيد تحقيق الآمال المشروعة للشعب الفلسطيني، كما لا ينبغي له أن يفعل ذلك. إلا ان بذل المجموعة الدولية بالتعاون مع الفلسطينيين الرافضين لاستخدام العنف، جهوداً حثيثة لمعالجة هذه الآمال من شأنه أن يوجه ضربة قاصمة للإرهاب. ولهذا السبب لا يمكن إرجاء حل النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني والشعور العميق باليأس في بعض اطراف العالم العربي، الى ان يتحقق النصر في الحرب على الارهاب. وفي الوقت نفسه، يتوجب علينا أن نسعى لتحقيق الاستقرار والحكم الجيد وسيادة القانون في المنطقة.

ثالثاً: نستطيع جميعنا، كمواطنين اوروبيين أن نحمي ديمقراطياتنا من خلال ممارستنا للحقوق التي نثمنها ودفاعنا عنها، بل يتوجب علينا ذلك. فالارهابيون يسعون الى خلق جو من الذعر والقمع. والايمان بالديمقراطية هو خير سلاح نلجأ اليه في دفاعنا هذا. هؤلاء الذين يحسون أن جواً من المحاباة إزاء الارهاب يسود اوروبا، هم على خطأ. لقد شاركت الى جانب مليوني شخص في المسيرة التي طافت بشوارع مدريد في اليوم التالي على التفجيرات. لم يكن الخوف هو السمة البارزة آنئذ وإنما التصميم الهادئ على التعبير عن احترام الاموات والصمود في وجه الارهاب والدفاع عن الديمقراطية التي يثمنها الاسبان. والناس في اوروبا متحدون في تصميمهم على مكافحة الارهاب. وفي الوقت نفسه، هناك جدال سياسي مشروع حول أفضل السبل للاستمرار في مكافحة هذه. ومن شأن تجميد هذا الجدال ان يكون بمثابة الخيانة للمبادئ الديمقراطية.

فالاوروبيون يدركون ان النصر في الحرب على الارهاب لن يتحقق بسهولة. وسيكون هناك عدد من النجاحات التي تبقى مجهولة، لكن سيكون هناك ايضاً تراجعات في سياق هذه الحرب. وينبغي الا تدفعنا نجاحاتنا الى التواطؤ والاستخفاف بالخصم، كما يجب الا تثير فينا التراجعات شعوراً باليأس. ينبغي أن نكرس طاقاتنا كلها للعمل على بسط سيادة القانون، وذلك من دون المساس بمبدأ سيادته، فالارهاب يستهدف القيم التي تأسس عليها الاتحاد الاوروبي. ومن هنا فالارهاب سيهزم من خلال التشبث بهذه القيم نفسها.

*المثل الاعلى للشؤون الخارجية والامن في الاتحاد الاوروبي

أشباح الحرب الطائفية في العراق

داود البصري *

dawoodalbasri@hotmail.com

لم يعد الموضوع سباقا في إستعراض التمنيات !، ولا مجرد فاصلة عابرة في سباق التنافس الإنتخابي والذي دخل محاورا خطرة وحساسة باتت نتائجها تلقي بظلالها الثقيلة على مستقبل العملية الديمقراطية المنشودة في العراق والتي لا يراد لها محليا وحتى إقليميا أن تختمر وتتفاعل لتصل لغايتها المنشودة في ظل واقع عراقي صعب ومتداخل ومتوتر باتت كل الزوايا الحادة فيه على موعد مع إستحقاق مرعب وغير مطلوب ولكنه تجاوز اليوم مرحلة النمو الجنيني ليصل لحالة النمو التضخمي والسريع وأعني بذلك خيار (الحرب الطائفية الأهلية) المرعب والتي كانت الخلافات الناجمة عن الإنتخابات الأخيرة بمثابة الوقود الصلب الذي إستغلته جماعات عديدة ناشطة في عراق اليوم وبعضها ليس بعيد عن محاور السلطة القائمة لإشعال نيران حرب ونزاع قد نعرف كيف يبتدأ ولكننا قطعا لا نعرف كيف سينتهي، أو ما ستتمخض عنه صورة العراق والمنطقة فيما لو وقع المحظور وحدث ما كان يحذر منه الجميع منذ أكثر من ربع قرن بالتمام والكمال ومنذ أن أطلق (صدام) صرخاته الشهيرة في فبراير ١٩٨٠ ضد إيران والتي أشعل بعدها حربا ضروس أرادها أن تكون (ملحمة قومية بعثية مقدسة)!! فتحولت لدراما دموية سوداء وبائسة زرعت فيروسات الطائفية والتقسيم الإجتماعي والتخلف الإجتماعي... لقد بات واضحا اليوم بإن إستعار عمليات الخطف والقتل والتفخيخ والإنتحار الإرهابي في العراق لم يعد يستهدف فرض خيار تسريع إنهاء حالة الإحتلال الأجنبي للبلد ومقدراته، بل دخل ضمنا ضمن خانة الإجهاز على العراق وبنيته الإجتماعية والسياسية والطائفية، وتخريب المعبد العراقي على رؤوس الجميع عبر التفنن في عمليات القتل الطائفي المنهج وتوجه البهائم المتوحشة المفخخة صوب مناطق العبادة وبيوت الله والمساجد والحسينيات وحتى المآتم وسرادقات العزاء والإجهاز على الأرواح البريئة تحت دواعي وأسباب مجرمة وغير مبررة ولا يمكن الدفاع عنها أو تبريرها تحت أي صيغة جاءت، فقتل أبناء العراق في المقدادية وكربلاء والنجف وبغداد لا يمكن أن يكون زاوية من زوايا و تكتيكات إنهاء الإحتلال الأميركي؟ وتحويل أما